

أنثروبولوجية الفكر الديني اللاهوتي -أسطورة عاليسا أنموذجا-

Anthropology of religious and theological thought -The legend of Éliissa as a model-

زهرة شوشان*، جامعة أكلي محند أولحاج. البويرة (الجزائر)، z.chouchane@univ-bouira.dz

تاريخ النشر: 2021/12/10

تاريخ القبول: 2021/12/03

تاريخ الإرسال: 2021/08/27

ملخص:

تعتبر الظاهرة الدينية والتراكم التاريخي لها من أهم المواضيع التي اهتمت بها الأنثروبولوجيا في دراستها للإنسان، وفي بناء الهوية لدى الشعوب. وهذا ما سنحاول تناوله من خلال تحليل هذه الظاهرة في أسطورة "عاليسا". وفق مقاربة نظرية أنثروبولوجية للفكر الديني اللاهوتي.

انطلقت "عاليسا" في تأسيسها لمدينة "قرط حدشت" عام 814 قبل الميلاد، فكان ذلك إيذانا ببداية حضارة متطورة قائمة على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط، وكان لتأثيرها الدور الأكبر في غناها. فتقدم الملك القوي "هيارباس" بطلب زواجها. وقبلت طلبه بعد تفكير طويل، حفاظا على أمن مدينة قرطاج في ظل عاجزها عن مجابهة الحرب.

تقول الأسطورة أن الملكة بعد ذلك قررت نصب محرقة كبيرة عند أبواب المدينة. أهلكت فيها الكثير من الضحايا قربانا لروح زوجها الأول، ثم ارتمت بدورها في هذه المحرقة. فضلت روحها تكرم بعد ذلك في مكان موتها كأسطورة. يظهر لنا من خلالها جوانب اتصالية وأخرى انفصالية على مستوى الخطاب الرمزي الديني، ما بين الاضطهاد والتيه. وبين تأسيس "عاليسا" لحضارة راقية وبين رفضها المبطن لشخصية الملك الأمازيغي، تتوغل البنى الأنثروبولوجية لتفسر الأبعاد الدينية التي لاتزال راسخة في سلوكيات المجتمع إلى وقتنا الحالي.

الكلمات المفتاحية: الظاهرة الدينية، الأسطورة، البنى الأنثروبولوجية، الخطاب الرمزي.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The religious phenomenon and its historical accumulation are among the most important subjects in which anthropology has been interested in its study of man and in the construction of identity between peoples. This is what we will try to address by analyzing this phenomenon in the legend of "Élissa". According to an anthropological theoretical approach to religious theological thought.

"Élissa" undertook the establishment of the city of "Quart Hadasht" in 814 BC, which marked the beginning of a developed civilization based on navigation and trade in the Mediterranean, and her influence had the greatest role in its wealth. The powerful King "Hiarpas" proposed marriage to him. Elissa accepted her request after careful consideration. To preserve the security of the city of Carthage in the face of its inability to face war. Legend has it that the queen then decided to erect a large pyre at the gates of the city. She sacrificed many victims for the soul of her first husband, and then she in turn sacrificed herself in this holocaust. His spirit was honored at the place of his death as a legend.

Keywords: Religious phenomenon, myth, anthropological structures, symbolic discourse.

مقدمة:

الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان وأعماله، أي كل منجزاته المادية والفكرية، أي الدراسة الشاملة للإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة... ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكا محددا، وهو أيضا العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ واستشراف مستقبل الإنسان معتمدا على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل... ومن أهم المواضيع التي اهتمت بها الأنثروبولوجيا في دراستها الإنسان منذ الوضعية البدائية لنشأته، الظاهرة الدينية بمختلف أطرها وأنساقها وخلفيتها الواعية وغير الواعية. هذا ما نهدف إلى توضيحه من خلال تحليل إشكالية أنثروبولوجية الفكر الديني اللاهوتي، أسطورة "عاليسا" نموذجاً وذلك باعتماد المنهج التاريخي، ونركز في ذلك على بعض الأمثلة الواردة في تأسيس الأسطورة محل الدراسة.

1. الإطار المفاهيمي والنظري:

تركز أدبيات هذه الدراسة الاستطلاعية حول أنثروبولوجية الفكر الديني اللاهوتي في أسطورة "عاليسا"، على عدة مفاهيم للإحاطة بكل جوانب هذه الإشكالية. وهي كما جاءت في الكلمات الدالة: الأسطورة، الفكر الديني اللاهوتي، البنى الأنثروبولوجية، الخطاب الرمزي. نركز فيه على المفهومين المركزيين التاليين: الأسطورة والفكر الديني اللاهوتي

1.1. الأسطورة:

اهتم الكثير من العلماء والمفكرين بإشكالية الأسطورة وتطورها واحتضارها أمثال: "كلود ليفي ستروس" (Claude levi strauss)، "رولان بارت" (Bathes)، "جان بياجي" (Piaget)، "إدموند ليش" (Edmund leach)، "ستيفن هيث" (Stephen Heath)، "لاكمان" (Lacan)، "إريك جولد" (Eric Gould)، و"مالينوفسكي" (Malinowski)، "دوركايم" (Dur Kheim)، و"ماوس" (Mauss) (شاهين، 1996، صفحة 13)

تفسر الأساطير من خلال انتشارها وانحصارها، فمثلا إمكانية العثور على أسطورة الطوفان في كل جزء من العالم، حيث نجدها حاضرة من خلال الأساطير البابلية والسومرية وانحصارها في منطقة وادي دجلة والفرات كما نعثر على هذه الأسطورة في بلدان يستبعد فيها الفيضان كما في اليونان أو كنعان، يفسر حضور الأساطير في أي مجتمع من خلال انتشارها فمثلا إمكانية العثور على أسطورة الطوفان في كل جزء من العالم، حيث نجدها حاضرة من خلال الأساطير البابلية والسومرية. فمن الجلي أنّ الأسطورة قد انتقلت من موطنها الأصلي وانتشرت، وأبرز مثال على هجرة الأساطير من موطنها الأصلية هو اكتشاف مقاطع من أسطورة "جلجامش" في أثناء الحفريات الأمريكية في ميجيدو، تروي بطولات كادموس، وكيف حملت الأبجدية الفينيقية إلى اليونان وأصبحت أم الأبجديات.

ويمكن ملاحظة تفسخ الطقوس وانقراضها، وذلك من خلال زوال الحضارة التي أدت فيها دورا هاما، كما نجد أنّ الأساطير المتعلقة بالطقوس المتفسخة تتحرر من ارتباطاتها الطقسية لتتنطوي تحت لواء الأشكال الأدبية وتدخل بذلك في تراث شعوب أخرى. (هوك صموئيل، 1983، الصفحات 13-14)

وتجدر الإشارة أنّ الأساطير قد رافقت الإنسان منذ نشأته ولا تزال. إذ ومنذ بداية القرن السادس عشر تم الانفصال التدريجي بين التفكير الفلسفي والتفكير العلمي، وهذا بمساهمة مجموعة من علماء التجريب مثل "بيكون"، وعلماء الفيزياء مثل "غاليلي"، و"نيوتن". كما أنّه زادت حدة انفصال العلوم عن الفلسفة في الفترة المعاصرة بدءا من القرن التاسع عشر إلى غاية مدخل القرن الواحد والعشرين، بسبب ظهور التخصصات العلمية كعلم المادة، البيولوجيا، الفيزياء الذرية... ومن مظاهر انفصال الفلسفة عن

العلوم، انفصال الدراسات الإنسانية عامة والاجتماعية خاصة عن توظيف المنهج التأملي (الفلسفي)، حيث برز التحليل المنطقي للعلم مع اتجاه الوضعية المنطقية بمساهمة "رودلف كارناب" (R. Carnep)، أين تغيرت وظيفة الفلسفة من البحث عن الميتافيزيقا إلى التحليل المنطقي للعلم، فلقد أعاد "كارناب" طرح مواضيع الفلسفة من وجهة عملية مثلا كإشكالية التحقق أي متى تكون معارفنا العلمية صادقة؟

من الميتافيزيقا إلى التحليل المنطقي للعلم، فلقد أعاد "كارناب" طرح مواضيع الفلسفة من وجهة عملية مثلا كإشكالية التحقق أي متى تكون معارفنا العلمية صادقة؟

هذا بالإضافة إلى الاعتماد على المناهج الحديثة العلمية في تفسير الظواهر كتطبيق الفيزياء في الاجتماع كما وضّح ذلك "أوجست كونت" (August Conte) في المرحلة الوضعية. لكن، على الرغم من هذا «لن يعطينا العلم كل الإجابات» (ليفي ستراوس، الأسطورة والمعنى، بدون تاريخ، صفحة 15) إذ الفكر يكون دائما بحاجة إلى إجابات عن اهتماماته المستمرة، وهذا ما يدفع إلى التفكير الأسطوري بصفة غير واعية "فالإنسان يبلغ مرحلة التفكير بالأساطير دونما معرفة بها" (ليفي ستراوس، الأنثروبولوجيا البيئية، تر: صالح (مصطفى)، 1977، صفحة 257) "فالأسطورة تبقى أسطورة ما دام الناس يدركونها كذلك" (ليفي ستراوس، الأسطورة والمعنى، دون تاريخ، صفحة 7) واستنادا لما سبق ذكره نطرح السؤال التالي: ما معنى الأسطورة؟. هناك من يسمّي الأسطورة خرافة، ولها عدّة معاني:

ورد لفظ "الأساطير" تسع مرات في القرآن، منها ثمان مكية، وواحدة فقط مدنية وهي سورة "الأنفال" والتي تعد انتقالية في الدعوة المحمدية من مكة كفضاء اجتماعي للاضطهاد إلى المدينة والتي تمثل فضاء اجتماعيا للانبعاث. ولفظ "الأساطير" يرتبط دائما بـ "الأولين"، وهي إشارة إلى الكافرين، إذ أنّ السور نزلت في مناسبات تحمل معاني الاحتجاج والتعنت حول مسائل عقيدية أبرزها الإيمان بالوهمية الله ووحدانيته. فمثلا ورد قول الله: "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" -قرآن كريم، سورة الأنعام، آية 25- تدعو الآيات إلى التوحيد بناء على براهين وحجج عقلية، ولكن الذين كفروا يجادلون جدا لعقبا ويقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، أي في نظرهم لا أساس ولا المنطق لهذه الآيات. والأسطورة _ وإن كانت ذات منشأ ديني _ فهي "تعمل على توضيحه، وإغنائه، ومن ناحية أخرى فإنّ الأسطورة تعمل على تزويد فكرة الألوهية بألوان وظلال حيّة، لأنّها ترسم للآلهة صورها التي يتخيلها الناس" (فراس، الأسطورة والمعنى، 1997، صفحة 24) أي الصور التي يميل إليها الأفراد ويتوافقون معها. وفي نفس الإطار يذهب كل من "دافيد كرتشي" (David Krech) و"ريتشارد كرتشفيد" (Retchard Grutchfied) إلى القول بأنّ ما نعتبره معتقدات خرافية هو تلك المعتقدات التي برهنت أنّها على خلاف

مع الحقائق الموضوعية، والتي يحتمل أن يشارك في الاعتقاد بها عدد كبير من أبناء المجتمع، والتي تتضمن قضايا تصف ظواهر تسمح بنسبها إلى أسباب فوق طبيعية مثل القضاء والقدر، الحظ، الشيطان" (عيسوي، 1984، صفحة 15).

وهذا ما ذهب إليه "مالينوفسكي" (Malinowski) في قوله: "الأسطورة هي الأفكار والممارسات والعادات التي لا تستند إلى أي تبرير عقلي، ولا تخضع لأي مفهوم علمي سواء من حيث النظرية أو التطبيق" (عيسوي، 1984، صفحة 19) أجاب "كلود ليفي ستروس" (Claude levi strauss) عن إشكالية الأسطورة بقوله: "كي يفهم معنى الأسطورة، هل لنا أن نختار بين التفاهة والسفسطة؟ البعض يؤكد أن كل مجتمع يعبر في أساطيره عن المشاعر الأساسية مثل: الحب، الحقد، الانتقام، التي تكون مشتركة في سائر أنحاء العالم... والبعض الآخر يرى أن الأساطير تشكّل محاولات شرح الظواهر الصعبة الفهم: كالفلكية والمناخية... إلخ، لكن، المجتمعات ليست مغلقة عن التأويلات الثابتة، حتى حينما تنبئ الزيف، لماذا تفضل فجأة طرق التفكير المظلمة والمعقدة" (Levi Strauss, 1958, p. 228)

ومنه نستنتج بأن الأسطورة هي:

أولاً: تعبير عن مشاعر المجتمع المشتركة.

ثانياً: مجموع المعتقدات غير المرتبطة بالعقل، والتي تتضمن قضايا تصف ظواهر مردّها إلى ما وراء الطبيعية.

ثالثاً: نسق من العقائد الدينية قائمة على أساس صلة خيالية تربط بين أحداث لا عقلية.

رابعاً: إجابة عن تساؤلات الأفراد المهمة والمجهولة كأصل الأشياء وتطورها.

2.1. الفكر الديني اللاهوتي:

الواقع الاجتماعي هو امتداد للفكر الأسطوري الخرافي ويرى "أوجست كومت" (Auguste comte) (1798-1857) في نظريته "الوضعية" والتي استخلصها من دراسته لتاريخ المجتمعات بأنّ العقل البشري مرّ عبر ثلاث حالات مختلفة وهي: الحالة اللاهوتية (الأسطورية الخيالية)، والحالة الميتافيزيقية (المجردة)، والحالة الوضعية الحالية (العلمية). وتميّزت الحالة اللاهوتية بوجود العبادة المحسوسة أي ترتبط بالمادة كتجسيد الآلهة في الواقع كما في الوثنية.

كما تميّزت بسيطرة التفسيرات الدينية الخرافية، أمّا المرحلة الميتافيزيقية فترجع أسباب حدوث الظواهر إلى العلل الغيبية المفارقة أيّ كان مصدرها، إذ "تصور الظواهر على أنّها نتاج فعل مباشر ومتواصل تقوم به كائنات عليا فوق طبيعية، يكثر عددها أو يقل هي المرجع الأخير في كل ما يحدث من

تغيرات وتقلبات" (الجابري عابد، 1982، صفحة 17) كما بلغت هذه المرحلة أوجها عندما أحلت مكان الآلهة المتعددة إلها واحدا" (الجابري عابد، 1982، صفحة 17).

إذ حدث انتقال تدريجي من الفيتشية وعبادة الأصنام إلى تعدد الآلهة إلى عبادة إله واحد. ومن أهم تلك الاعتقادات الدينية نذكر للتوضيح: "الروحية" أو "المذهب الروحي" وتقوم هذه الديانة على "التصور العقيدى الواسع الانتشار الذي يؤمن بأنّ شيئا غريبا أشبه بالخيال يعيش في الإنسان هو الروح" (ديرلاين، 1973، صفحة 75) ولكن ظاهرة الروح مرتبطة بالموت وما بعدها إذ و "مع مرور الزمن، ومع تطور العقل البشري ونموه، ومع تراكم المعارف وقيام الحضارات، بدأت هذه المجاهيل تنهوى واحدة بعد الأخرى، استطاع العقل البشري أن يغزوها، ويكشف أسرارها ويمزق من فوقها رداء الرهبة والخوف فتحوّلت من ظواهر غامضة مرهوبة إلى معارف علمية واضحة الأصل ولم يبق مستغلقا عليه من هذه المجاهيل سوى... "ظاهرة الموت" وما بعد الموت ورغم كثرة ما قيل وكتب عن هذه الظاهرة، ورغم أنّا قد لا نجد حضارة أو فلسفة أو عقيدة لم تتعرض لهذه الظاهرة بكل تفصيل وإسهاب ممكن.

رغم هذا كله، فما زالت الظاهرة على غموضها وما زالت حتى يومنا هذا تبعث الرهبة في نفس الإنسان، مهما أظهر من عدم المبالاة" (راجي، 1987، الصفحات 12-13) والروح اهتمت بها أقدم الحضارات وفي هذا الإطار نسوق مثالا عن المصريين القدامى إذ كانوا يعتقدون بوجود كائنين روحانيين على الأقل يتصلان بالفرد، ولعل أكثر هذه الكائنات وضوحا هو "الكا" التي تعتبر قرينا للإنسان.

وهناك من الأسباب ما يدفع إلى الاعتقاد بأنّها كانت في العصور المبكرة معادلة للمشيمة أي خلاص الجنسين، كانت "الكا" تولد مع الإنسان غير أنّها كانت تحيا حياة منفصلة عنه خلال حياته ولكنها كانت تتحد مع جسده ثانية في لحظة الموت" (رالف، 1961، صفحة 43) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى "كان الأفراد يعتقدون أنّ لهم "البا" تترك الجسد في لحظة الموت، وتتمثل هذه "البا" على شكل طائر اللقلق أو أبو حديق وهو طائر يتميز برأس بشري ملتج وأمامه مصباح، يشير ذلك إلى اعتقاد قديم يقول بأنّ "البا" تتحوّل إلى نجم، ومع ذلك ففي إمكانها أيضا أن تعود إلى الأرض في صورة الرجل الذي مات أو على صورة طائر أو حيوان أو إحدى الأسماك" (رالف، 1961، صفحة 44)

فالتحوّل فكرة أساسية في سيرورة الروح، والتحوّل ليس وليد الحكاية في حد ذاتها بل هو وليد فكر أسطوري قديم قدم الإنسان، وفكرة التحوّل هي عنصر هام داخل الأسطورة. والتحوّل يكون عادة "من" المادة الميتة" إلى نسيج حي ومن ثم إلى نسيج حيواني حي، وجسم الإنسان هو مجرد انتقال وتغير وتحوّل واحد دائم غير منقطع باتجاه مساعد الأشكال وأنواع المادة الحية، ويتفكك الجسم البشري ويتحوّل مجددا لجسم غير عضوي بادئا بذلك حلقة التطور مرة أخرى ومن البداية" (يوم، 1995، صفحة

والتاريخ الإنساني حافل بأحداث التحول، فنجد مثلا فكرة التحول في الحضارة الهندية والمعروفة بتناسخ الأرواح والتي ترى أنّ تحول الروح هو نتيجة السلوك أو الفعل وهذا الأخير له ثلاثة مصادر "فالفعل ينبثق من العقل ومن الكلام ومن الجسد، يعطي نتائج سيئة أو جيدة، إنّ أحوال الناس السامية والمتوسطة والمنحطة تنتج عن الفعل" (راداكرشنا و شالر، 1967، صفحة 250) وكل الأفعال مهما تنوّعت لها نتائج حسب مصدرها وأهدافها:

إذ "كنتيجة للأفعال الخاطئة التي اقترفها الجسد يصبح الإنسان في الولادة الثانية شيئا غير حي وكنتيجة للأخطاء التي ارتكبتها الكلام يصبح طيرا أو حيوانا، وكنتيجة للأخطاء العقلية يولد الإنسان في طبقة منحطة" (راداكرشنا و شالر، 1967، صفحة 251) جسدت المرحلة اللاهوتية الميتافيزيقية تفسير ظواهر الطبيعة بأسباب مفارقة للطبيعة، والذات الفاعلة كانت جزءا من الطبيعة الحسية الخارجية.

2. أسطورة "عاليسا":

تساءل "هيدغر" (Heidegger) في كتابه: "الأعمال الكاملة": كيف يجب أن نكون نحن أنفسنا، والحال أننا لسنا نحن أنفسنا، وكيف يمكن أن نكون أنفسنا، دون أن نعرف من نكون؟. حتى نكون على يقين من أننا نحن الذين نكون؟

فالهوية حسب رأي الدكتور "بوزيدة عبد الرحمن" هي: "تخصيص للذات (الهوية الفردية) انطلاقا من ماهية مشتركة (الهوية الجماعية) أو هوية شمولية أولى وهي الماهية الإنسانية" (بوزيدة، 1993، صفحة 34) ومنه، لا يمكن تفسير النحن أو الهوية من دون الرجوع إلى الخلفية السوسيو تاريخية لنشأتها، إذ التراكم التاريخي أثبت أهمية العنصر التاريخي في بناء الهوية لدى الشعوب؛ ولتفسير تعدد الرؤى نحلل على سبيل المثال أسطورة تأسيس قرطاج.

إذ الهدف من الاهتمام بالأسطورة ليس هو تفسير الأسطورة بقدر ما هو الكشف عن النظام أو النسق الذي يؤدي إلى ظهور وتولد النصوص القائمة على الحكى وإدراك كنه هذه النصوص. تقول الأسطورة: أنه قديما هاجرت جماعة من سكان "صور" الفينيقية بعد طردهم من وطنهم، وكانت تقودهم الزعيمة الأميرة " أليسا ديدون" يرافقها كبير كهنة الفينيقيين إلى جزيرة قبرص إلى جانب مجموعة من الصبايا اللواتي أسرن على سواحل الجزيرة، وبعد سنوات من الإبحار في البحر المتوسط حطوا رحالهم على شواطئ الليبيين، وكانت صور وقتها تشهد مرحلة الانحطاط والخضوع للملوك بابل، بينما حملت "عاليسا" نفسها وأتباعها هربا من أخيها "بيغماليون" ملك صور الذي قتل زوجها وخالها، واستقبلها سكان المنطقة وعلى رأسهم الملك بالكرم وأحسن ضيافتها حيث ذبح لها ثور عظيم وأقام لها مؤدبة عشاء لها ومرافقها، ولكن "عاليسا" طمعت أكثر من ذلك حيث طلبت _ وبمكر النساء _ من الملك منحها قطعة أرض بمقدار مساحة جلد الثور الذي ذبحه، ولبي الملك الأمازيغي رغبته. فأمرت أتباعها بتقطيع جلد الثور

إلى أشرطة دقيقة وأحاطت بواسطتها ببقعة أرض واسعة استطاع أتباعها أن يقيموا فيها. وهي قرطاج المستقبل أو "قرط حدثت" أو "المدينة الجديدة". فالأسطورة هنا تجمع ما بين لغة الإشارات والرموز وكذا حضور البدئية والطرافة فعندما يحل الرمز محل الواقع وتؤسس الحكاية لمستقبلها الأسطوري تبدأ "عاليسا" بوضع الأسس الأولى لمدينة قرطاج.

ونلاحظ في هذه الأسطورة والتي تدرج في دائرة الصراع الدائر بين الخير والشر. بين الحياة والبقاء والموت والفناء بأن هناك جوانب اتصالية وانفصالية على مستوى الخطاب الرمزي حيث مرة تتنافر وأحيانا تتألف، وذلك ما بين الاضطهاد والتهيه فانطلقت "عاليسا" في تأسيسها لمدينة "قرط حدثت" عام 814 قبل الميلاد والتي أقيمت على هضبة "بيرصا" ومعناها بلغة السكان الأصليين "جلد الثور" وكان ذلك بداية لبناء حضارة متطورة قائمة على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط، ومن هنا "نمت المدينة، وأسهم تأثير الملكة في غناها. فتقدم ملك من ملوك البلد الأصليين، اسمه "هيارباس" وطلب أن يتزوجها. ولم تستطع أليس أن ترفض طلبه. لأن ذلك الملك كان قويا وقادرا أن يهدد أمن مدينة قرطاج التي ما برحت عاجزة عن مجابهة الحرب. وطلبت إليه أن يمهلهما بعض الوقت. وتقول الأسطورة إن الملكة نصبت بعد ذلك محرقة كبيرة عند أبواب المدينة. وقررت أن تقدم ذبيحة لروح زوجها الأول، وبعد أن أهلكت ضحايا كثيرة، ارتمت بدورها في المحرقة، فماتت وظلت روحها تكرم بعد ذلك في مكان موتها، مثل إلهة، حتى سقوط قرطاج" (مادلين، 1981، صفحة 40) وتحليل الأخطاء التأسيسية في نشأة المجتمع القرطاجي كنموذج لتكوين الهوية التاريخية: نذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض الأمثلة الواردة في كتاب: "مادلين هورس" (Madeleine Hours): تاريخ قرطاج:

ففي توضيح وجود الفينيقيين في تونس: تقول "ظهر الفينيقيون في تونس، على الأرجح، منذ بدء الألف الثاني قبل الميلاد، ولم يؤسسوا مدنا ثابتة إلا في القرن الثاني عشر" (مادلين، 1981، صفحة 15) فعبارة "على الأرجح" تفيد التقريب بما يوحي الارتياح، والحقيقة العلمية تتنافى والارتياح. أما في وصف المصادر فقد ورد: "فالمصادر التي نستطيع من بعد أن نهمل منها المعلومات المتعلقة بتاريخ وحضارة قرطاج، هي نصوص لمؤلفين كلاسيكيين، ونقوش فينيقية وفوبية، بالإضافة إلى الآثار التي نبشها التنقيب... إن أقدم النصوص هي قصائد هوميروس. فعندما أُلّف الإلياذة والأوديسية. كانت تجارة صور منتشرة في كل البحار. وأظهر "بيرار" في سلسلة من المؤلفات، مقدار ما للفينيقيين من فضل على اليونان الناشئة". (مادلين، 1981، الصفحات 18-19) وهذه معلومات مأخوذة من الشعر من إملاء الهوى. فكيف تؤخذ بدلالاته في مواضع تتطلب الدقة والموضوعية. فالمقدمة الخاطئة تؤدي بالضرورة إلى نتائج خاطئة.

وتضيف "ويعرض لنا تاريخ "هيرودتس"، وتاريخ "ديودورس"... وغيرهم، معطيات هامة، ولكن يشوبها التحامل في اغلب الأحيان. وبالإضافة إلى ذلك، لم تستق هذه المعارف من منابعها. كما أن نقد

المصادر مازال أمرا عسيرا" (مادلين، 1981، صفحة 19) وتضيف أيضا أما في وصف المصادر فقد ورد: وعثرنا بفضل "أوزاب"، الذي يستشهد "بفيلون الجبيلي"، على بعض معالم الديانة الفينيقية. وكان "فيلون" قد وفق بين هذه المعالم وبين الحقائق التي أتى بها "سنكونياتون". إلا أن النصوص التاريخية المحرفة والمؤولة لا توضح الواقع رغم كثرتها، كما توضحه الوثائق القديمة المستخرجة من باطن الأرض" (مادلين، 1981، صفحة 19) وتؤكد ندرة النصوص أي "النصوص الشرقية أن الوثائق المكتوبة التي تتناول أقدم مرحلة من التاريخ الفينيقي مازالت نادرة" (مادلين، 1981، صفحة 19) النصوص الفونية تطلق هذه التسمية على النصوص التي اكتشفت في قرطاج. وكتبت باللغة الفينيقية. وهي أبجدية سامية. وتبقى هذه النصوص رغم كثرتها قليلة النفع في أغلبها. ولقد درست ونشرت تباعا بحسب اكتشافها في "مجموعة المخطوطات السامية" بفضل جهود أكاديمية المخطوطات والآداب" (مادلين، 1981، صفحة 20) تضيف في ذات الصدد "يبدو أن موطن الفينيقيين الأول كان في حوار البحر الأحمر، هذا ما أورده هيرودوتس، وأكدته من زمن قريب مخطوطات رأس شمرا. فهذه المخطوطات ليست سوى أساطير وقصائد دينية وملحمة" (مادلين، 1981، صفحة 35).

نستخلص مما سبق بأن المصادر تتميز:

- يشوبها التحامل.
 - مازالت نادرة.
 - رغم كثرتها غير أنها قليلة النفع في أغلبها.
 - المخطوطات ليست سوى أساطير وقصائد دينية وملحمة.
- وفيما يلي نوضح بعض الأمثلة الواردة في تأسيس الأسطورة والمنبثقة عن الفكر الديني اللاهوتي: مركزين على عدة عناصر أهمها: الماء، النار، الذكر والأنثى.

1.2. الماء:

اتخذ الماء قيمة أنثروبولوجية كبيرة لدى مختلف المجتمعات فأولى الحضارات (مصر، الرافدين...) نمت وازدهرت على ضفاف الأنهار. كما ارتبط الماء في الأساطير الأولى ببدء الخلق تنص الأسطورة بأنه في البدء خرجت الأرض "جايا" من رحم الخواء (العدم)، ثم أنجبت ذاتها السماء "أورانوس". فأحب "أورانوس" "جايا" فأرسل الأمطار الغزيرة التي تسللت إلى داخل تشققات الأرض، "وكان ثمره هذا الحب وهذا اللقاء بأن حملت الأرض الحشائش، الأزهار، الأشجار وأنجبت الحيوانات والطيور. واشتد العشق بين السماء والأرض بين "أورانوس" و"جايا" فطلبت منه المزيد من الأمطار، وكان لها ما أرادت...سالت الأمطار على سطح الأرض، كوّنت المجاري المائية... ظهرت الأنهار، البحيرات، المحيطات" (قاسم، 1996، صفحة 24) نستخلص من هذه الأسطورة بأن "أورانوس" السماء منح "لجايا" الأرض

والماء، وهذا ما أدى إلى ظهور عناصر الطبيعة كالحشائش والأشجار والأنهار، فالماء إذن هو مصدر عناصر الطبيعة. وكذلك حسب اعتقاد القدماء بأن أصل الأشياء واحد وهذا ما عبّر عنه قدماء اليونان بقولهم "أصل الأشياء واحد فمنهم من قال إنّ هذا الأصل هو الماء، وهذا رأي طاليس المالطي (Thalès)، وقال غيره: إنّّه الهواء، وهذا رأي إنكسيمانس، وذهب غيره إلى أنّه مادة لا صورة لها معيّنة دائمة التحرك، فتتغيّر تارة وترجع إلى أصلها أخرى وهذا رأي إنكسمندر، فهم بالجملة لم يتجاوزوا حد الطبيعة" (جلال شرف، 1981، صفحة 31) نفهم من هذا بأنّ "تاليس" يرى بأنّ الماء هو السبب الأوّل في كل شيء (مصدر الأشياء) معبّراً بذلك عن فكرة العقيدة الشرقية التي ترى بأنّ الحياة كلّها تصدر عن بحر سحيق في القدم هو بحر الزمان الأوّل. أمّا تلميذه "إنكسمندر" فيرى بأنّه "ولدت المخلوقات الحية من العنصر الرطب... وتكون السحب من الهواء بتليده، وهذه إذا ما تكثفت تكثيفا أشد أصبحت ماء، والماء إذا زيد في تكثيفه تحوّل إلى تراب، وإذا تكثف أشد ما في وسعه أن يتكثف تحوّل إلى صخور" (هنري، 1960، صفحة 280) لقد سيّق "إنكسمندر" الهواء عن الماء في حين هناك بعض الأساطير ترى بأنّ الماء هو الأصل.

بعد توضيح أهمية الماء نوضح كيف وظف في أسطورة "عاليسا": هاجرت جماعة من سكان "صور" الفينيقية بعد طردهم من وطنهم، وكانت تقودهم الزعيمة الأميرة "عاليسا ديدون"، وبعد سنوات من الإبحار في البحر المتوسط حطوا رحالهم على شواطئ اللوبين... واستقبلها سكان المنطقة وعلى رأسهم الملك بالكرم وأحسن ضيافتها... أذن الهروب من الهلاك إلى النجاة كان عبر المرور بالماء، الذي لولاه لما مرت "عاليسا" إلى بر الأمان.

2.2 النار:

يعد اكتشاف النار تغييرا جذريا في ذهنية المجتمعات إلى مجتمع أفضل حيث الدفء بعيدا عن البرد القارص، وحيث الطّعام الطاهي بدل الطّعام النيئ. ويرى جيمس فرايزر (James Frazer): أنّه من بين كل المخترعات الإنسانية ربما كانت طريقة إشعال النّار أهمها وأغناها من حيث النتائج، ولا بدّ وأنها تعود إلى زمان موغل في القدم، ذلك لأنّه لا يوجد على ما يبدو أي دليل مؤكّد عن وجود قبيلة مهما كانت متوحشة تجهل استعمال النّار أو طريقة إيقادها. ومن المؤكّد أيضا أنّه يوجد الكثير من القبائل الوحشية ونصف المتحضرة، التي تروي قصصا عن عصر كان فيه أجدادها لا يعرفون النار، ثم كيف توصّل هؤلاء الأجداد إلى معرفة استعمالها وطريقة إيقادها بواسطة الأخشاب أو الأحجار. ولكن، من المشكوك فيه أن تكون هذه القصص نابعة عن ذكريات لأحداث تدّعي تذكّرها، إذ من المحتمل أن تكون مجرد افتراضات اخترعها أناس كانوا لا يزالون يتمتعون بفكر طفولي عن طريقه يلجؤون إلى حل معضلة، كانت بطبيعة الحال، مطروحة على أذهانهم بمجرد أن بدأوا في التفكير في أصل الحياة الإنسانية وأصل المجتمع" (جيمس، 2008، صفحة 7).

يتضح لنا من خلال هذا النص الدور الحاسم الذي تلعبه النار في حياة الشعوب إذ هو حدث بارز يمكن اعتباره قفزة نوعية في الحالة الذهنية للأفراد الذين اخترعوها أو على الأقل اكتشفوها. وتوجد عدة أساطير تناولت خلق النار، نوجز في ذكر أهمها:

ربطت الأسطورة الفارسية بين وجود النار ارتباطاً باكتشاف الحاكم اذ: لم تكن النار معروفة حتى زمن حكم الملك هوشنك، ولم يكن الناس يعلمون شيئاً عن خصائص النار حتى تسنى للملك هوشنك اكتشاف النار بنفسه، حينما كان يعبر سفح أحد الجبال، إذ رأى ثعباناً وسط الطريق تلمع عيناه كالدم القاني، حينئذٍ ترجل هوشنك ونزل على صهوة جواده ليحمل حجراً قاسياً صوّبه نحو جسم الثعبان، غير أنّ الثعبان تمكّن من الفرار فاصطدمت الحجرة بحجر آخر محدثة شرارة ملتهبة جراء قوة الاصطدام. تعجب الملك هوشنك لرؤية الشرارة، وأعاد الكرة ثانية إذ حمل حجراً ورماه بقوة مماثلة للأولى، فامتدّ لسان من اللهب محرقاً الأشواك والأعشاب الجافة المتراصة حول ذلك الحجر. انتبه هوشنك لخاصية النور المنبعث من النار، لكنّه لم يعلم شيئاً من خاصية إحراقها لذلك فقد وضع إحدى يديه على تلك النار بدافع فضوله وإعجابه بها، فاحتترقت. هناك وضع الملك هوشنك تسمية لذلك الشرار المنبعث، وأطلق عليه اسم: "النار" وأمر الناس أن يقيموا حفلاً بمناسبة اكتشاف النار، وقد عرف ذلك الحفل باسم: "حفل سده" الذي مازال معروفاً إلى الآن في كثير من ربوع إيران، حيث تقام الاحتفالات وتوقد النيران احتفاءً بذكرى اكتشاف النار" (أنجوي، 2007، الصفحات 55-56)

نستخلص من هذه الأسطورة بأن اكتشاف النار ارتبط بوجود الثعبان وملاحقة الحاكم له، وحين قذفه بالحجر احتك هذا الأخير بالصخر محدثاً لهيباً. وقد كان الناس يقيمون الطقوس للاحتفال بها. وهناك أسطورة أخرى تناولت خلق النار. إذ تروي من الأسطورة اليونانية: بأنّ: إله السماء الأكبر "زيوس" خبأ النار عن بني الإنسان، ولكن "بروميثيوس" البطل الأريب وابن تيتان جابي سرق النار من إله السماء واختبأ في ساق شجرة (نوع من النباتات) وأتى بها إلى الأرض حيث البشر.

فعاقبه "زيوس" على هذه السرقة بأن سَمَرَه أو قيّده على قمة القوقاز وعهد إلى نسر بأن ينهش كبده أثناء النهار لأن هذا العضو يستعيد في الليل كلّ ما فقدته في النهار. واستمر "بروميثيوس" هذا العذاب ثلاثين ألف عام حتى أنقذه "هرقل" في النهاية" (جيمس، 2008، صفحة 199) ومع ذلك، فبحسب ما ذهب إليه أفلاطون لم يرق "بروميثيوس" بسرقة النار وتقديمها للبشر من لدى "زيوس" إله السماء، وإنما من مصنع "هيفايستوس" إله النار ومن "أثينا" إلهة الفنون. ويروي لنا الفيلسوف أنّ الآلهة صنعوا تحت الأرض كلّ المخلوقات الفانية بما في ذلك الإنسان، بتركيب أجسادهم من نار وتراب. وعندما حان موعد نقل المخلوقات على سطح الأرض، قدّمت الآلهة "لبروميثيوس" وأخيه "إبيميثيوس" مهمّة تدبير الإنسان غير أنّ نفسيته الإنسانية الراقية حالت دون أن يسرق النار منها ويقدمه للبشر على أساس أن يعيشوا في

رغد ونعمة" (فرايزر جيمس جيمس، 2008، ص 199). وبمقتضى أسطورة أخرى فإن "بروميثيوس" حصل على النار بتسلقه إلى السماء وإيقاده مشعلا من دولا ب ملتعب في عربة السماء، ويفسر المؤرخ الإغريقي العقلاني "ديودور الصقلي" أسطورة بروميثيوس وسرقته للنار بأن "بروميثيوس" هو الذي اخترع غابة النار التي يؤدي حك العصوين فيها إلى انبثاق النَّار. ولكن الرواية الإغريقية التي كانت تتناولها الشفاه كانت تعزو اختراع غابة النار إلى "هرمز". ويفترض "لوكريس" أن الإنسان يمكن أن يكون قد تعلم إيقاد النار من ملاحظاته أن الأغصان تنبثق منها النار إذا حُكَّت بعضها ببعض، أو ربما يكون أجدادنا الغلاظ قد حصلوا على أول نار لهم بفضل حريق أشعلته الصاعقة" (جيمس، 2008، الصفحات 200-201).

نستخلص مما سبق: بأن النار أحضرت إلى الأرض بفعل سرقة "بروميثيوس" لها من إله السماء الأكبر "زيوس" أو من "هيفايستوس" إله النار. ومن أقدم الأساطير التي تناولت مسألة النار الأسطورة الهندية، وتروي هذه الأسطورة بأن "ماتاريسفان" هو الذي أتى بالنار من السماء. وكان رسولا لفيثا سفان المضي الأول الذي ذهب يبحث عن النار لاستعمالها في تقديم الأضاحي، ذلك أن رأي الشعراء الفيديين (نسبة إلى فيدا) هو أن غاية النار لم تكن تدفئة بني آدم أو طهو طعامهم وإنما هي إهلاك الضحية المقدّمة للآلهة" (Veda، 1967، الصفحات 221-225) ونستخلص من هذه الأسطورة بأن "ماتاريسفان" هو الذي أتى بالنار من السماء قصد إهلاك الضحية المقدّمة للآلهة. بمعنى وجود النار يرتبط بتقديم أضحية.

وهناك أسطورة أخرى نتحدث: عن عصر كان الأجداد لا يملكون نارا ويعانون من البرد، ولكن الإله "توهيل" أشفق على البشر وقام بخلق النار، وتوجّه رئيس قبيلة "الكيشي" حيث الإله وطلب منه النار، فقدّمها له وأثناء طريق العودة هطل مطرٌ غزير وقامت عاصفة هوجاء باردة وممتزجة بالجليد القاسي، فانطفأت النار. غير أن "توهيل" خلق نارا أخرى من جديد ضاربا الأرض بمداسه، وتكرّر الحدث في كلّ مرة تنطفئ فيها مباحج النيران" (جيمس، 2008، صفحة 143)

نستخلص من هذه الأسطورة بأن النار أحضرت إلى الأرض بطلب رئيس قبيلة "الكيشي" من الإله "توهيل" الذي أشفق عليه وأعطاه إياها. نستخلص ممّا سبق ذكره عن خلق النار:
أولا: القوة المتجسدة في مالكة الأصلي (الآلهة).

ثانيا: أحضرها كائن أدنى مما هو الأعلى أي من عند الآلهة بفعل السرقة _ وهذا الغالب _ وفي حالات نادرة عن طريق العطاء.

ثالثا: تقام من أجلها الطقوس والاحتفالات.

استنادا لما سبق تكتسي النار أهمية قصوى في منظومة التمثلات لدى الأفراد. وقد وظفت في أسطورة "عاليسا" بشكل معتقدات عبور: إذ "انطلقت "عاليسا" في تأسيسها لمدينة "قرط حدثت" عام 814 قبل الميلاد والتي أقيمت على هضبة "يرصا" ومعناها بلغة السكان الأصليين "جلد الثور" وكان ذلك بداية لبناء

حضارة متطورة قائمة على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط، ومن هنا "نمت المدينة، وأسهم تأثير الملكة في غناها. فتقدم ملك من ملوك البلد الأصليين، اسمه "هيارباس" وطلب أن يتزوجها. ولم تستطع أليسا أن ترفض طلبه. لأن ذلك الملك كان قويا وقادرا أن يهدد أمن مدينة قرطاج التي ما برحت عاجزة عن مجابهة الحرب. وطلبت إليه أن يمهلها بعض الوقت. وتقول الأسطورة إن الملكة نصبت بعد ذلك محرقة كبيرة عند أبواب المدينة. وقررت أن تقدم ذبيحة لروح زوجها الأول، وبعد أن أهلكت ضحايا كثيرة، ارتمت بدورها في المحرقة، فماتت وظلت روحها تكرم بعد ذلك في مكان موتها، مثل إلهة، حتى سقوط قرطاج" إذن لقد أثرت "عاليسا" انهاء حياتها عن طريق استخدام النار لما للنار من قدسية في معتقدات الشعوب على أن تتزوج من ملك لم توافق عليه.

3.2 الذكر والأنثى:

على مر التاريخ يوجد اختلاف بين الرجل والمرأة وهذا ما فسره "جون جراي" إذ أخضع 25000 شخص للتجربة والاختبار لكشف أوجه الاختلاف بين الرجل والمرأة، والغرض منها هو تخفيف توتر العلاقات بين الجنسين وخلق المزيد من الحب بينهما، والدراسة تقدّم اقتراحات عملية بشأن كيفية تقليل الإحباط واليأس وزيادة فرص السعادة والتآلف.

يرى "جون جراي" بأنه من جهة "يعتقد الرجال خطأ بأنّ النساء تفكرن وتتواصلن وتتفاعلن بنفس الطريقة التي يتصرف بها الرجال أنفسهم، وكذلك النساء فهن يتوقعن خطأ بأنّ الرجال يشعرون ويتواصلون ويتجاوبون بنفس الطريقة التي تمارسها النساء" (جون، 1999، ص 07). ومن جهة أخرى يوضّح بأنّ "الرجال والنساء مختلفان في طريقة التفكير والإحساس والإدراك وردود الفعل والحب والحاجة والتقدير. إنهم يبدو كما لو كانوا من كواكب مختلفة ويتحدّثون لغات مختلفة ويحتاجون أشياء مختلفة" (جون، 199، صفحة 3) ومنه فالاختلافات بين الجنسين تنحصر في عدة ميادين كطرق التفكير، والإدراك، والإحساس، والاحتياجات...الخ، ولتوضيح هذه الاختلافات تناول "جون جراي" بالتحليل مجموعة من المتغيرات أهمها:

أ-طبيعة الاهتمام. ب-ماهية الكفاءة.

ت-الإحساس بالذات. ث-طبيعة العلاقات.

ج-التحفيز. ح-كيفية مواجهة المشاكل

خاتمة:

عموما جسدت أسطورة "عاليسا" هذا الاختلاف في طريقة التفكير: "عندما ذبح الملك لعليسا واتباعها ثورا وأحسن فادتها. "عاليسا" طمعت أكثر من ذلك حيث طلبت وبمكر النساء من الملك منحها قطعة أرض بمقدار مساحة جلد الثور الذي ذبحه، ولبي الملك الأمازيغي رغبتها. فأمرت أتباعها بتقطيع جلد الثور إلى أشرطة دقيقة وأحاطت بواسطتها ببقعة أرض واسعة استطاع أتباعها أن يقيموا فيها. وهي قرطاج المستقبل أو "قرط حدثت" أو "المدينة الجديدة". فالمرأة فكرت بمكر وخبث في حين الرجل فكر بعقل الملوك.

قائمة المراجع:

- السواح فراس. (1991). مغامرة العقل الأولى. لبنان: دار الكلمة للنشر.
- السواح فراس. (1997). الأسطورة والمعنى. دمشق: دار علاء الدين.
- الشوّاف قاسم. (1996). ديوان الأساطير، سومر وأكاد وآشور. بيروت: دار الساق.
- إيفانون يوم. (1995). الإنسان والروح، تر: أبو حمزة عاطف. سوريا: دار الطليعة الجديدة.
- جراي جون. (199).
- سرفيالي رادكرشنا، و مور شالر. (1967). الفكر الفلسفي الهندي، تر: الياجي ندره. بيروت: دار البقطة العربية.
- شيرازي أبو القاسم أنجوي. (2007). حكايات من الأدب الشعبي الفارسي، تر: باكور مصطفى. الدوحة: المجلس الوطني للثقافة، الفنون والتراث.
- عبد الرحمان بوزيدة. (1993). قراءة ثقافية للأزمة. الثقافة، عدد2.
- عبد الرحمان عيسوي. (1984). سيكولوجية الخرافة والتفكير العلمي، مع دراسة ميدانية مقارنة على الشباب المصري والعربي. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- غايت راجي. (1987). الخروج من الجسد: أغرب من الخيال. مصر: دار الشروق.
- فرانكفورت هنري. (1960). ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى. بغداد: دار مكتبة الحياة.
- فرايزر جيمس. (2008). أساطير في أصل النار، تر: الشام يوسف (شلب). دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ط 2.
- فردريش فون ديرلاين. (1973). الحكاية الخرافية، نشأتها، مناهج دراستها، فنيها، تر: إبراهيم (نبيلة)، اسماعيل (عز الدين). بيروت: دار القلم.
- كلود ليفي ستراوس. (1977). الأنثروبولوجيا البنوية، تر: صالح (مصطفى). دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

كلود ليفي ستراوس. (بدون تاريخ). الأسطورة والمعنى. الدار البيضاء: منشورات عيون.
لنتون رالف. (1961). شجرة الحضارة، قصة الإنسان منذ فجر التاريخ حتى بداية العصر الحديث، تر:
فخري (أحمد) ج3. مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.
محمد الجابري عابد. (1982). المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي. بيروت: دار الطليعة، ط2، ج2.
محمد جلال شرف. (1981). الفلسفة اليونانية. بيروت: دار النهضة العربية.
محمد شاهين. (1996). الأدب والأسطورة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
هنري هوك صموئيل. (1983). منعطف المخيلة البشرية، تر: حديدي (صبيح). سوريا: دار الحوار للنشر
والتوزيع
هورس ميادان مادلين. (1981). تاريخ قرطاج، تر: بالش (إبراهيم). بيروت: منشورات عويدات.

Claude Levi Strauss, (1958) *Anthropologie structurale*. Paris : Plon.

Eliade Mircea. (1963) *Aspects du mythe*. Paris: Gallimard.

Le Veda. (1967). Premier livre sacré de l'Inde (trésors spirituels de l'humanité. Belgique :ed :
Marabout université ,Planète, Verviers